العنوان:	القومية العربية و الاستعمار
المصدر:	المجلة
الناشر:	الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
المؤلف الرئيسي:	دسوقي، صلاح الدين حسن عبيد
المجلد/العدد:	ع 48
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1960
الشهر:	نوفمبر / جمادي الاولى
الصفحات:	7 - 10
رقم MD:	347289
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	القومية العربية الافريقية، القومية العربية، العالم العربي، الاستعمار، السياسة الاستعمارية، الوحدة العربية، الوحدة الاسلامية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/347289

القومية العربية والاستعمار

بقلم الأستاذ صلاح دسوقى

عرّف أحد العلماء الذكاء بأنه سرعة التكييف مع الوسط الجديد . . . ومع الصفات الكثيرة التى يمكن أن نصف بها الاستعمار والتى تجعل منه عدواً للخير وللإنسانية وللسلام ، لا يمكن أن ننسى أنه يتصف كذلك بالذكاء .

الاستعمار ذكىّ ؛ وذكاؤه على الخصوص من هذا النوع الذى يفسره العالم النفسى ، فهو دائماً يغير من خططه، ويبدل من ثيابه ؛ ليتلاءم مع الأوضاع الجديدة التى تطرأ على العالم من ناحية ، وعلى ضحاياه من ناحية أخرى .

شهد القرن التاسع عشر البداية الحقيقية للاستعمار الذى اعتمد على وسائل تناسبت مع ذلك العهد ومع ظروف الدول التى وقعت بين مخالبه .

ففى آسيا مثلا ؛ كانت قوافل التجارة هى الدليل لجيوش الاستعمار ... كانت الشركات التجارية التى تستغلّ مصادر الثروة هى الركيزة الأولى للاستعمار ... فى آسيا ؛ كانت الشعوب تشكو من ضخامة عددها وتشكو من قلّة مواردها ... وعن هذا الطريق دخل الاستعمار فاستغلّ منابع الثروة ، ثم ألقى لأصحابها بالفتات يقتاتون به . . . وعندما أصبحت للشركات سلطة جديدة لها كيانها ولها قوّتها . كان استبدال علَم الشركة بعَلَم الإمبراطورية المستعمرة سهلا ميسوراً .

وفى إفريقية ؛ كان الناس قد خرجوا من عهد البداوة الأولى وكان ينقصهم العماد الروحى الذى يقيم حياتهم ... كانوا يبحثون عن الله ... فأرسل إليهم الاستعمار المبشرين ، وبدلا من أن يقودوا الإفريقيين إلى الله ، قادوهم إلى شباك الاستعمار المنصوبة وفخاخه المعدّة .

وفى هذه الأيام لم تكن قوة الكيان الدولى قد برزت فى المحيط العالمى ... وكانت الدنيا وكأنها قد قسمت إلى أركان منفصلة ، لا يدرى ركن منها شيئاً عما عداه .

كان من السهل إذن أن يتحكم السيف ، وأن يعلو صوت المدفع ، وأن تبذر المفرقعات ؛ فصارت جيوش الاستعمار تفتح الأراضى المغزوّة فى آسيا وفى إفريقية . وشهد القرن العشرون مولد الحركات التحررية الكبرى ، وكان لابد أن يخرج الاستعمار من الدول التى توحدت إرادة شعبها ، واجتمعت كلمته .

خرج الاستعمار تحت ضغط المدّ التحرُّرى ، وبدأت الإمبراطورية تنحسر وتنكمش لتصير دولاً من الدرجة الثانية أو الثالثة .

ولكن الاستعمار الذى خرج مرتفعاً ، لا يمكن أن يسلِّم فى سهولة بحق الشعوب فى حريتها وفى استقلالها . . . إنه يحاول أن يعود مرة أخرى فى

ثوب جـــديد وبخطط جديدة .

* * *

وتدور المعركة مرة أخرى ... وثالثة ورابعة .. فى شرقنا العربى – فى هذه المنطقة من العالم التى جعل منها موقعها الجغرافى قنطرة بين الشرق والغرب ، ورباطاً يربط بين قارات ثلاث ؛ كان لابد للاستعمار من أن يركز هجماته عليه ، وأن يسلبه حريته ، وأن يقتسم أراضيه .

ومنذ وضع الاســتعمار قدمه فى الشرق العربى لأول مرة عرف أن نجاحه فى البقاء فى هذه المنطقة ، يرتبط مع قدرته على تفكيك وحدتها وقسمتها إلى دول وممالك .

كان يعرف منذ الوهلة الأولى أن أقوى ما يواجهه هو القومية التى تربط بناء العرب وتجعل منهم فى النهاية شعباً واحداً من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى .

تنبّه الاستعمار لهذه الحقيقة التاريخية الهامة منذ وضع أقدامه فى المنطقة ... فمن الناحية السياسية قسم المنطقة إلى دول وجعل هذه الدول تختلف فى نظم الحكم بها ... فهى إما ملكيات دستورية ، وإما ملكيات مطلقة ، وإما إمارات أو جمهوريات .

وهذه الاختلافات السياسية كانت تباعد من التفاهم بين الدول المتجاورة .

ثم أخذ يزكى العصبيات والقوميات الإقليمية ليفتت بهذا وحدة القومية الكبرى .

ففى مصر ؛ أثيرت نزعة الفرعونية حتى وجدت من بين الكتّاب الداعين من يؤيدها ويدعو لها .

وفى لبنان ؛ برزت الفكرة الفينيقية التى تقول إن اللبنانيين ليسوا عرباً ، بل هم من نسل الفينيقيين الذين أتوا مهاجرين من خارج المنطقة .

وفى سوريا ؛ ارتفعت أصوات العملاء تنادى بسوريا الكبرى ، وبالقومية السورية ، وبالهلال الخصيب ؛ وكلها مشروعات وأفكار ولدها الاستعمار وحملها أنصاره ليفتتوا بها دعوى القومية العربية .

وفى شمال إفريقية ؛ برزت فكرة القومية الإفريقية لتفصـــل بين الشعب العربى فى المغرب العربى الكبير والشعب العربى الكبير فى الشرق .

وفى السودان ؛ ترددت دعوى القومية الافريقية لفصل هذا القطر الشقيق عن شقيقاته العربيات .

تقسيم القومية الواحدة إلى قوميات محلية أول خطة قصدها الاستعمار لقهر القومية العربية الكبرى .

ثم لجأ الاستعمار كذلك إلى الدين كعامل من عوامل الفرقة ، فارتفعت أصوات كثيرة تدعو للوحدة الإسلامية لتنضم إلى شعوب المنطقة ، شعوب إسلامية أخرى لا تدخل فى نطاق القومية العربية ، وهى إيران وباكستان . وواضح أن الاستعمار لم يكن يقصد من بذر هذه الدعوى إلا محاولة ضرب القومية العربية بفكرة مناوئة ، ونقل عاصمة التحرر العربى من القاهرة إلى باكستان أو إلى إيران حيث يرتفع عدد المسلمين فى هذه الدول ليزيد عن عدد المسلمين فى جميع الأقطار العربية .

لجأ الاستعمار للفكرة الإسلامية عند ما قامت الثورة العربية فى سوريا عام ١٩١٦ ففى ذلك الحين استطاع الاستعمار أن يجنّد أصوات بعض الوطنيين المصريين لينادوا بالإسلامية ويدعوا للوحدة الإسلامية .

بل لقد استخدم المذاهب المختلفة فى الدين ، ليبذر بذور الفرقة بين أبناء الوطن الواحد ، كما فعل فى العراق ولبنان واليمن .

كلها إذن خطط تهدف إلى غرض واحد ، هو القضاء على القومية العربية بتفتيتها وإضعافها .

بدأت هذه المحاولات منذ وضع الاستعمار أقدامه

فى المنطقة ، وبعد أن اضطر كارهاً للخروج منها .

لم يتوقف الاستعمار طوال هذه السنين عن محاولاته ، بل لقد انقسمت خططه إلى شقّين رئيسين . . . ومحاولات سريعة حاسمة للسيطرة وفرض السلطان... ومحاولات بطيئة تتمّ على مر السنين بتحويل الأفكار وبذر بذور الفرقة والفتنة ، وتركها للأيام تنمّيها وتقوّى من عودها .

* * *

تحوّل الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية بعد أن برزت فى المحيط العالمى كيان الدول الصغيرة وضم المجتمع الدولى شعوب العالم — كبيرها وصغيرها — حول مائدة واحدة . . . تحوّل من الاستخدام السافر للسلاح الذى يبسط سلطانه ، ويحقق أطماعه إلى طريقين جديدين :

المساعدات الاقتصادية .

والأحلاف العسكرية .

أما المساعدات الاقتصادية فقدّمها للدول على أنها حقٌ إنسانىٌ يوجبه الضمير على صاحب الإنتاج الناقص إلى الذى يعوزه هذا الإنتاج . . . حتى إذا تقدمت الشعوب تتلقى هذا العون . . . كان الطوق الذى يلتفُّ حول حريّتها ويقيد من استقلالها ويعيدها إلى حظيرة الدول المستعمرة بقرة حلوبا .

أما الأحلاف العسكرية ؛ فقد استخدم الاستعمار التخويف من الشيوعية وسيلة ليجمع فى نطاق أحلافه الدول الصغرى التى ترفض الشيوعية وتتمسك بمذهبها ودينها وتقاليدها .

وكان هذا الخطر الموهوم هو العصا التى استخدمها الاستعمار ليُدخِل فى حظيرة أحلافه الضحايا من الشعوب الصغيرة .

ومع ذلك فقد فشل الاستعمار مع شعوب كثيرة ، وبخاصةً بعد أن خرجت إلى الميدان الدولى مقررات مؤتمر باندونج ، فأعلنت عن مولد قوة جديدة ، لا شرقية ولا غربية ، تنادى بالسلام وتعمل من أجل السلام . تعارض الأحلاف العسكرية وتدعو للتعايش السلمى بين مختلف المذاهب .

* * *

جرّب الاستعمار إذن طُرقه الجديدة مع القومية العربية ولكنه فشل . . .

فشلت خطة المساعدات الاقتصادية المشروطة ، وفشلت خطة الأحلاف العسكرية وعاد الاستعمار يبحث عن وسائل أخرى ... وهنا خانه ذكاؤه ، وظن أن الوسائل الجديدة تحمل بين ثناياها الفشل ، فصار يطرق أقدم وسائله .

الغزو العسكرى .

كانت مغامرة السويس الفاشلة التى استطاعت مقاومة الشعب المصرى — مؤيدة بالقوة المعنوية العالمية — أن تدحرها وتحقق النصر السريع الحاسم .

كان الاستعمار يهدف إلى غزو مصر عسكريًّا ، وكان يتصور أن مجرد هجومه على منطقة القناة سوف يشعل نيران ثورة فى القاهرة تطيح بحكومة جمال عبد الناصر .

ظنّ الاستعمار أن جمال عبد الناصر رئيس حكومة تجىء إلى الحكم ثم تتركه عند ما تتحزب الأمور . ونسى الاستعمار أن عبد الناصر قائد ثورة ، وزعيم شعب ، وأنه يظل قائداً لهذا الشعب ما دام هذا الشعب ... وأنه لن يذهب إلا بذهاب هذه القاعدة الشعبية العريضة ... وهذه القاعدة الشعبية العريضة التى صارعت الرومان واليونان والترك والفرنسيين والإنجليز فقهرتهم جميعاً ، باقية حتى تحقق رسالتها للإنسانية .

فشل الاستعمار فى غزوه العسكرى ، كما فشل فى محاولة التخلص من جمال عبد الناصر ، فإذا به يعود مرة أخرى ليحاول تفتيت القومية العربية بخلق

قوميات جديدة ... إنها ليست فرعونية أو فينيقية أو سورية هذه المرة ... بل هى قوميات عربية جديدة

قاد نورى السعيد حملة فى الشرق . . .

وقاد الحبيب بورقيبه حملة أخرى فى الغرب .

ونادى كلٌّ منهما بقومية عربية غير تلك التى يدعو لها جمال عبد الناصر .

وعندما أسقط شعب العراق نورى السعيد ، تسلَّم العلَمَ حسين بن طلال الذى كان أسرع من سلفه إفصاحاً عن نوايا سادته ، فأعلن ويعلن كل يوم أنه قائد العرب وبطلهم الملهم الشجاع . . . ثم فضح نفسه وزميله عند ما أعلن عن تضامنه مع شريكه الآخر الحبيب بورقيبه .. أعلنا معاً عن قربٍ تبادل الزيارة بينهما لتأكيد التعاون فى خدمة الاستعمار .

* * *

هــذا عرضٌ سريع لمعركة القومية العربية والاستعمار . . . تلك المعركة التى يلقى فيها الاستعمار بكل قواه وجنوده ، والتى يستخدم فيها كل وسائله ، والتى يبدو فيها ذكياً فى بعض الأحيان ، والتى يخونه فيها ذكاؤه فى أحيان أخرى .

* * *

ولنعدْ إلى هذه الوسائل والأساليب لنحاول فى المقالة القادمة أن نلقى الضوء على جوانبها وخفاياها ...

